Journal of the Faculty of Arts (JFA)

Volume 84 | Issue 3 Article 20

7-1-2024

Intuition and Improvisation in the News (Narratives) of Natifi slave girl "Anan" (d. 226): A Structural Study

Khalid bin Saleh bin madallah Al-Sarany
Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language and Literature - College of Languages and Humanities - Qassim University - Buraidah - Kingdom of Saudi Arabia.,
khsarany@qu.edu.sa

Follow this and additional works at: https://jfa.cu.edu.eg/journal

Part of the Arabic Language and Literature Commons

Recommended Citation

bin Saleh bin madallah Al-Sarany, Khalid (2024) "Intuition and Improvisation in the News (Narratives) of Natifi slave girl "Anan" (d. 226): A Structural Study," *Journal of the Faculty of Arts (JFA)*: Vol. 84: Iss. 3, Article 20.

This Original Study is brought to you for free and open access by Journal of the Faculty of Arts (JFA). It has been accepted for inclusion in Journal of the Faculty of Arts (JFA) by an authorized editor of Journal of the Faculty of Arts (JFA).

البَداهة والارتجال في أخبَار جَارية النَّاطِفي عِنان (ت٢٢٦) دراسة إنشائية(*)

د. خالد بن صالح بن مد الله السّعراني
أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها-كلية اللغات والعلوم الإنسانية- جامعة القصيم- بريدة - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تستهدف هذه الدراسة بداهة الجارية عِنان وارتجالها، وتحاول بيان القيمة الإنشائية لهذا العنصر، كما تحاول بيان بعض الخصوصية التي تتميز بها، مع شرح ذلك بالشواهد والأدلة. وتتضمن الإجابة عن بعض الأسئلة من مثل، مفهوم البداهة عند هذه الجارية وقيمتها وطرق إنشائها.

وقد جاءت في مقدمة ومبحثين، فالأول: تناول البداهة في أخبارها والثاني تناول شواهد البداهة وعناصرها.وخرجت بمجموعة من القيم والنتائج من أهمها:

1. البداهة واضحة بشكل ملموس في شعرها أكثر من أخبارها النثرية، لتوافر العناصر التي تساعد على وجودها من مثل المعاياة والمجاراة.
2. إن جل الصفات التي وُصفت بها هذه الجارية وتواترت عند الكُتاب وتكررت في مصنفات الأدباء والعلماء، تُلامس موضوع البحث وتتفرع منه، بل إن غالب الأوصاف يمكن أن تَحمل معنى البداهة بشكل أو بآخر.
3. عنصر المبادرة والسرعة ظاهر في مجمل أخبار تلك الجارية، وهو من أهم عناصر البداهة، ولذا تكررت عبارات تدل على ذلك من مثل: (فقالت غير متوقفة- فقالت مسرعة- فقالت بسرعة- فلم تلبث أن قالت- سرعة جواب).

الكلمات المفتاحية: البداهة – الارتجال – الإنشائية – الجارية عنان – السرعة

Intuition and Improvisation in the News (Narratives) of Natifi slave girl "Anan" (d. 226): A Structural Study

Abstract

This study targets the intuition and improvisation of the female slave Anan, and tries to show the structural value of this element, as well as some of the peculiarities that characterize it, while explaining them with evidence and proofs. It includes answering some questions such as the concept of intuition, its value, and ways of creating it.

(*) **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (84) العدد (6) يوليه 2024.**

It is organized in an introduction and two sections, the first dealing with the intuition in her news and the second dealing with the intuition in her news: The first deals with intuition in her news and the second deals with the evidence of intuition and its elements.
It came up with a set of values and findings, the most important of which are:

1. Intuition is more tangibly evident in her poetry than in her prose news, due to the availability of elements that help its presence, such as similes and parallels.
2. Most of the adjectives that have been described by writers and repeated in the works of writers and scholars touch the subject of the research and branch out from it, and most of the descriptions can carry the meaning of intuition in one way or another.
3. The element of initiative and quickness is evident in all the news of this neighborhood, which is one of the most important elements of intuition, so phrases indicating this were repeated, such as: (she said without stopping - she said quickly - she said quickly - she did not wait long to say - a quick answer).

Keywords: Intuition - Improvisation - Structuralism - slave girl Anan- quickness

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبعد:

فلقد اهتمت العرب بالبداهة بوصفها سمة مكملة للصفات الخُلقية، ومجمّلة للصفات الخَلقية، وساقت في هذا المضمار أخبارًا أدرجتها تحت تصنيفات مختلفة، تنصب في الخبر الأدبي، فتارة تأتي في سياق حكاية، وتأتي تارة أخرى في سياق نادرة، وكثيرا ما تأتي ضمن الأجوبة المسكتة.

والبداهة فيها استثارة لذهن القارئ وتمييز للكلام والمنطوق عن غيره وتساهم بشكل فاعل وملحوظ في كسر أفق التوقع لدى القارئ، ولذا وُسمت بأنها من المستحسنات القولية والكتابية وخاصة في الردود العلمية أو الحوارية.

وهي ظاهرة تستحق التأمل والدراسة كما أنها مفيدة في الاختيارات

الكلامية أو التقييدات الكتابية.

ومن أهم أسباب اختيار هذا الموضوع أن البداهة عند الجواري لم تُدرس دراسة علمية عميقة، وبالأخص أخبار الجارية عِنان وأشعارها، مع أن نصوصها التي حُفظت حمّالة لمجموعة من الأبعاد الأدبية المناسبة للتحليل والدراسة، وأفضل من جمع أخبارها وسرد مواقفها وأحداثها وعلاقاتها مع الشعراء هو الأصفهاني في كتابه (الإماء الشواعر)؛ ولذا فإنني اعتمدته مصدرا أساسيا لهذه الدراسة، كما سيأتي تفصيل ذلك.

وكون هذه الجارية مغمورة صارت دراسة الموضوع من دواعي هذا الاختيار، وذلك لإبراز اللمحات النصية والتعليق على البُنى والمفردات بما يتناسب مع النص المدروس.

وبلا شك سيجد الباحث خصوصية تتميز بها نصوص تلك الجارية؛ لكونها أشعر الجواري في عصرها وأقدمهن كما حكاه الأصفهاني، ولذلك وقع عليها الاختيار من بين بقية الجواري التي تناولها في كتابه (الإماء الشواعر)، وحيث إنها تمثل مرحلة معينة للمجتمع أو طبقية تفرضها البيئة والحياة الاجتماعية سينعكس ذلك على بناء النص ومفرداته وتراكيبه وغير ذلك من عناصره.

كما أن هذه الأخبار تحمل أشكالا متنوعة في الصياغة والاختيارات المعجمية مما يدفع الدارس للتأمل والتحليل.

ومن الأهداف المنشودة، دراسة الكيفية التي نشأ فيها هذا العنصر وبُثّ في النص، وإيضاح الحقول التي تُسهم في إثراء النص الأدبي، وخصوصيتها أو ضعفها وقوتها. ودراسة البنى في النص النثري وبيان الآثار والرموز التي تُميز قائل النص، ويستقل بها عن غيره، والكشف عن العلاقات بين المفردات والألفاظ، والتنقيب عن التقنيات اللغوية أو الفنية التي تنضوي تحت عنوان هذه الدراسة بأنواعها.

وستحاول الدراسة التعرف على أنواع هذه الخصوصية أو تصنيفها إلى مجموعة أصناف إذا وجدت، والوقوف على مواطن البداهة ومنابعها في النص وشرح ذلك بالشواهد والأدلة.

فالدراسة ستتصدى لجميع عناصر البداهة ومقوماتها المتوافرة في الأخبار المروية لتلك الجارية لبيان قيمة هذا العنصر وأهميته.

وبما أن البداهة سمة من السمات الفاضلة نصيا، فالمشكلة التي تواجه الدراسة تكمن في تحديد موطنها في النص أو معرفة منبعها والوصول إلى أكبر قدر من الوسائل التي توضح ذلك وتبرزه في النص، علما بأن الدراسة ستنتقي من أخبار تلك الجارية ما يتناسب مع الموضوع المشار إليه ومع ما يحقق أهدافها من حيث توافر المادة المحددة وبروزها.

ومن تساؤلات هذه الدراسة ما يلي:

1. ما البداهة وما قيمتها في النص؟
2. هل ينطبق تعريف البداهة على شواهد النص وأدلته؟
3. هل تتوافر البداهة في النص أو أنها مجرد عرَض غير مستقصد؟
4. كيف تتشكل هذه البداهة وأين موطنها؟
5. هل يتوافر منها أنواع وأصناف، أم أنها تمثل ظاهرة لا تنشطر ولا تتنوع؟
6. ما هي العناصر التي تتفرع من البداهة وتعد داخل دائرتها في المعنى الخبري.
7. ما خصائصها وما سماتها وكيف تشكلت في العمل الأدبي، وهل لها دلالات وأبعاد؟

ونظرا لاختلاف أخبار هذه الجارية ما بين الجزالة وغيرها، أقصد أن بعض الأخبار يعتريها الخلل وتدخل ضمن الأخبار غير المهذبة أو الهجينة - علما بأنها رويت في كتب متعددة- فإن الدراسة ستكون انتقائية بالقدر الذي يساعد في توضيح ظاهرة البداهة بقدر كاف.

ولا توجد دراسة علمية عن البداهة في أخبار جارية الناطفي؛ ولكن يوجد دراسات متعددة عن البداهة بشكل عام، أو دراسات في أخبار الجارية عنان؛ ولكن في موضوعات أخرى غير البداهة، ومن أمثلة ذلك:

دراسة الساعدي، عباس عبيد، السرد في حكايات الإماء الشواعر: الشاعرة عنان مثالاً، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية المجلد/العدد: ع 69 العراق،٢٠١١م.

دراسة لدعدور، أشرف علي، البداهة والارتجال في الشعر الأندلسي مجلة رسالة المشرق جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، المجلد/العدد: مج20، ع4،1 مصر، 2007م.

دراسة لعبد الله، محمد حسن، دهشة البداهة قراءة نقدية في رواية أحمد إبراهيم الفقيه "فئران بلا جحور" الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، المجلد/العدد: ع 144مصر، سبتمبر2000م.

دراسة لقمر النساء، بعنوان: أمثال البداهة والذكاء في الأدب العربي، صوت الأمة الجامعة السلفية، دار التأليف والترجمة، المجلد/العدد: مج 24، ع 9 الهند، سبتمبر 1992م.

دراسة لرقيب، محمد مرتضى، والراشد، إياس، بعنوان: الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني، قراءة نقدية، مجلة ميزان الحق، ص٣٨٧-٤١٢، ٢٠٢١م، وهي دراسة تتناول ظروف إنتاج الكتاب والقيمة التي يحملها وما أضافته الشعرية النسائية للأدب.

إن دراسة الكيفية التي تُصاغ فيها هذه الأخبار من أهم الإضافات العلمية في دراسة النصوص الأدبية، وتسعى هذه الدراسة إلى استجلاء عنصر البداهة من خلال التعرض للبنى والمفردات وجميع التقنيات التي قام منها النص.

وستعتمد هذه الدراسة المنهج الإنشائي، وذلك لمقاربة النص الخبري، والتعمق في خصائصه. وهذا المنهج يساعد على معرفة الكيفية التي تُبنى بها هذه النصوص بناء على الخبر المنقول مشافهة، ولذا سأتناول البداهة بأفرعها وعناصرها المتعددة مع الشواهد وسيفيد الباحث من المناهج الأخرى عند الحاجة.

وتنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة ومبحثين، فالمبحث الأول: يتناول البداهة في أخبار جارية الناطفي ويعبر إلى عنصر البداهة ومعناه، وأما المبحث الثاني فيتناول نماذج وشواهد للبداهة وعناصرها عرضًا وتحليلا، على النحو الآتي:

المبحث الأول: البداهة في أخبار الجارية عنان:

- مفهوم البداهة
- قسم الشعر
- قسم النثر

المبحث الثاني: عناصر البداهة في آثار الجارية عنان:

- عنصر السرعة
- عنصر الإجابة
- عنصر الارتجال
- البداهة عند الطلب
- عنصر الإيجاز والإطناب
- عنصر البداءة

المبحث الأول: البداهة في أخبار الجارية عنان

أ- مفهوم البداهة:

البداهة هي: الفجاءة[1] وفي اللسان: "البَديهة والبُداهة: أوّل كُل شيءٍ وما يفجأُ منهُ. وتقول: بادَهَني مُبادَهَة أي باغَتَني مُباغَتة"[2]. وقيل هي: العفوية وسرعة الخاطر وإصابة القول ارتجالا[3]، وقيل هي: حضور الجواب[4] وهذا هو أظهر معنى لغوي توصف به هذه العبارة -من وجهة نظري-.

وتجدر الإشارة إلى أن لفظة البداهة وردت في شعر هذه الجارية على إحدى الروايات وهي تهجو أبا نواس:

وإذا ما بَدَهتَني فاتق الله وعلق دوني على فيك سترا[5]

والأقرب أن البداهة هنا تحمل معنى الحضور، أي تذكرتني لأول وهلة، لا على المعنى الذي أشار إليه الفارابي وهو الفجاءة[6].

ويمكن الإضافة لتلك المعاني معنى آخر غير مذكور؛ لكنه يقترب من معنى البداهة ومدلولها الأساسي وهو الطبع والسجية والفطرة، ويأتي ذلك من قولنا أحيانا: ومن المعلوم بداهة، أو ومن المقرر بداهة ... إلى غير ذلك من عبارات الوصل أو الاعتراض.

والبداهة والبديهة بمعنى واحد، كما أشار إلى ذلك أبو علي القالي[7]، ومن هذا يتضح مفهومها الذي يسع الأبعاد الأدبية موضوع البحث.

وهذه الجارية اسمها: عِنَان بنت عبد الله من الإماء الشواعر، لها ديوان شعر يقع في عشرين ورقة، توفيت عام 226 هجرية[8]، وقد بدأ أبو الفرج الأصفهاني بأخبارها، للقيمة التي تختص بها، فهي على نحو قوله: من أشعر الإماء وأقدمهن[9].

كما يقول عنها: "كانت أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية، وأفضل من عرف من طبقتها، ولم يزل فحول الشعراء في عصرها، يلقونها في منزل مولاها فيقارضونها الشعر، وتنتصف منهم"[10].

وعِنان بكسر العين[11]، قال عنها ابن الجراح: "شاعرة ظريفة أديبة، كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها فيلقي عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعاني النادرة فتجيبه بديهًا"[12].

وحكى الأصفهاني عنها في الأغاني صفات خُلقية وخَلقية، حيث قال: "كانت صفراء جميلة الوجه شكلة مليحة الأدب والشعر سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها ويقارضونها فتنتصف منهم"[13]. و"هي صاحبة أبي نواس، وبينهما معاتبات ومضاحكات، وتهاجيا في آخر أمرهما. وكان لها ظرف بارع، وأدب كامل، في سرعة جواب. وكان لها مجلس ينتابه السراة والشعراء وأهل الأدب، يطارحونها الأشعار ويناشدونها"[14]. وهي "شاعرة جميلة رقيقة ذات بديهة وذكاء، نشأت في اليمامة وأقامت في بغداد وتختلط مناسبات شعرها بأخبارها"[15]

قال عنها الزركلي: "شاعرة مستهترة، من أذكى النساء وأشعرهن، كانت جارية لرجل يُدعى الناطفي من أهل بغداد، وهي من مولدات اليمامة، وقيل المدينة، اشتهرت ببغداد، وكان العباس بن الأحنف يهواها، لها أخبار معه ومع أبي نواس وغيرهما، ماتت بخراسان، قال أبو علي القالي: عنان الشاعرة اليمامية، كانت بارعة الأدب، سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف منهم، وأخبارها مدونة، وفي المستطرف من أخبار النساء أنها خرجت إلى مصر حين أعتقت وماتت هناك"[16]

وقد وردَت لهذه الجارية أخبارٌ كثيرة في مصنفات عدة[17]

أما الناطفي مولاها، فقد ورد اسمه بهذا الرسم في مصنفات كثيرة[18]؛ ولكنه ورد في بعض المواضع بهذا الرسم (النطافي)[19] ولا حاجة لتحرير الاسم والنظر في اختلاف هذه التسمية[20].

وأما آثار هذه الجارية في كتب المصنفين فتنقسم إلى قسمين:

ب-قسم الشعر:

ولها في كتاب الإماء الشواعر أكثر من (ستين) بيتا سوى ما ذُكر في المصنفات الأخرى، وقد ورد في بعض المصادر[21] أن لها شعرا في عشرين

ورقة.

وقد أثنى الأدباء على شعرها وجودته، وهو يدخل في باب المعارضات غالبا، ولذا يلفت الكُتاب إلى هذه السمة التي تتميز بها وما يرادفها فيقولون: لها أخبار و(معارضات – مساجلات- معاتبات- مضاحكات- مطارحات).

وقد امتدح الرشيد شعرها وفضّلها على كثير من الجواري، فلقد حكى الأصفهاني قوله عن الرشيد: مالي في عنان أرب غير الشعر، وهو يريدها للشعر وللزواج؛ ولكن صده عن مدح هيئتها مداراة من حوله، وقال الأصمعي: أجل والله ما فيها غير الشعر[22].

وهنا سؤال ملح، هل البداهة في شعر الجارية أكثر، أم البداهة في النثر أكثر؟ وهذا السؤال له أهميته بحكم أن أخبار هذه الجارية تشتمل على الشعر والنثر، والجواب على هذا السؤال يحتاج إلى دليل؛ ولكنني أؤكد أن البديهة واضحة بشكل ملموس في الشعر، فالبداهة في الشعر أكثر من غيره؛ لتوافر العناصر التي تساعد على وجودها من مثل المعاياة والمجاراة، وإلى جانب آخر فإن شعر هذه الجارية أكثر من نثرها، وهذا بطبيعة الحال سينعكس على نسبة البداهة قلة وكثرة، وقد تأملت كتب المعاجم وبحثت عما يدعم هذه الفكرة، فوجدت أنه ورد فيها ما يتعلق بهذا الشأن، حيثُ رُبطت مرة بالنثر ومرة أخرى بالشعر، جاء عند الزمخشري قوله: "بنو فلان يتبادهون الخطب"[23]؛ وورد أيضا في الصحاح ما يسند الشعر، حيث قال: "يتبادهان بالشعر، أي يتجاريان"[24]؛ ولكن الظن عندي أنها كثيرا ما تحضر البداهة في جلسات الشعر، وأخص الشعر -مع توافرها في غيره- لأن الشعر موطن المجاراة وهي مستجلب البداهة؛ ولأن العرب لم تدل البداهة ولم تعرف طريقها إلا من الشعر، ويشهد لذلك ما بين أيدينا من تعليق المصنفين على أشعار تلك الجارية والتأكيد على سمة البداهة، أو شيء من عناصرها. تأمل البيان الآتي:

إن جل الصفات التي وُصفت بها هذه الجارية وتواترت عند الكُتاب وتكررت في مصنفات الأدباء والعلماء -خلا أوصافها الشكلية أو قوامها وهيئتها مما لا يتعلق بموضوع الدراسة- هي تلامس موضوع البحث وتتفرع منه، بل إن غالب الأوصاف يمكن أن تَحمل معنى البداهة بشكل أو بآخر.

ت-قسم النثر:

وهو عبارة عن أخبار وخواطر أو مواقف تنضوي تحت عنوان هذه الدراسة، كخبرها مع الرشيد وحوارهما حول ابتياعها وانصرافه عن ذلك لابتذال العيون لها، وأخبارها مع أبي نواس وحواراتهما، وغيرها من الأخبار.

ومن السمات التي تتسم بها أنها لا تبالي في قولها[25] شعرا كان أو نثرا، ولذا وصفها الزركلي[26] بأنها مستهترة، وهذه الألفاظ مما تنطبق على حالة عنان كما هو في اختيار عنوان هذا البحث، فمن معاني البداهة: "السذاجة والبلاهة"[27] وهذا داخل في دائرة ما أشار إليه الأصفهاني والزركلي.

وهذه الأوصاف والسمات لا تعدو أن تكون مرتجلة وعامة؛ لأنها جاءت في مواطن الترجمة والتعريف، ولم تكن مُقدَّمة في قالب علمي منظم؛ غير أنه لا يمكن إغفالها عند تحليل النصوص والنظر في عنصر البداهة خاصة، فإن الاستعانة بما وصفها به الأوائل يُعد من أهم المبادئ التي ترتكز عليها هذه الدراسة وتنشأ، ومن المستحسن -أيضا- أن تنطلق من حيث انتهوا.

إن البداهة في أخبار تلك الجارية تضفي على النص قيما ملموسة، ومن أهمها: موافقتها أو مخالفتها لتوقع القارئ، وفي كلا الحالتين ينتج عن ذلك استثارة وتحفيز، حيث إن المعارضات والمناقضات الشعرية التي اضطلعت بها هذه الجارية مع كبار الشعراء، هي موطن مناسب لتوقع القارئ وتأمله لنتيجة أو جواب، فإما أن يُصيب هذا المتوقع في توقعه وهو ما ينتظره في الأساس، وإما أن يخيب وهذا مما يخالف أفق الانتظار الذي يحمل على التفكير والتأمل.

فعندما ترد الأخبار بأن شاعرا من الشعراء وفد إلى الجارية عنان وعنده سابقة بمعارضتها في شعرها واستثارتها في شأن من شؤونها، فإن التوقع حين إذن يكون حاضرا من أول شطر شعري يبتدره الشاعر، ففي تلك الأثناء يترقب القارئ في النتيجة ويندفع لانتظار النهايات، وهذه النهايات تمثلها فقرة الرد، فإنه بنهاية الرد أو المناقضة تكون الانتظارات بلغت نهايتها، فإما أن تقع الموافقة أو خلافها -كما ذكرت آنفا- ففي كلا الحالتين يتحصل المقصود ويكتسب النص القيمة المهمة من عنصر البداهة.

قال الأصفهاني: أخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال حدثنا عمر بن شبة عن أحمد بن معاوية، قال: قال لي رجل، تصفحت كتبًا فوجدت فيها بيتًا جهدت جهدي أن أجد من يجيزه، فلم أجده، فقال لي، صديق لي: عليك بعنان جارية الناطفي، فأتيتها فأنشدتها:

وما زال يشكو الحب حتى حسبته ... تنفس من أحشائه أو تكلما

فلم تلبث أن قالت:

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه ... إذا ما بكى دمعًا بكيت له دمـا

إلى أن رثى لي من كان موجعاً ... وأعرض خلو القلب عني تبرما[28]

فأول الفكرة ينبئ عن عجز عند الشاعر، واستعانته بالجارية يبعث على الترقب والانتظار، وحين قال: فأتيتها فأنشدتها، بلغ الانتظار أقوى حالاته وأعزها، فلما أنشدها، قال: فلم تلبث، وهذا ينبئ عن اضمحلال العجز الذي بدأ في أول الخبر، وهو موقف إيجابي يعتمد على البداهة من خلال السرعة -على ما سيأتي شرحه- ثم أجازت البيت وأنهت انتظار القارئ بموقف إيجابي مع اختلاف توقعات القراء حيال النتيجة الأخيرة للخبر، حيث إنه ربما يتوقع القارئ ألا تجيز إجازة حسنة أو أنها تعتذر عن جُملة الرد، أو شيء من هذا، وإن كان هذا بعيدا عن التوقع؛ لأن سياق الخبر يدل على النتيجة الجيدة لهذا العجز بزواله.

وإذا تبصرنا وتأملنا في البديهة في سياقات الكلام وجدنا أنها تؤدي مجموعة من الوظائف والنتائج التي تصرف الكلام وتحمّله معان لم تقصد في الحال، وهذا من أهم القيم التي تنتمي إلى موضوع الدرس، وشواهد ذلك من التراث كثيرة.

فمن ذلك تغيير المواقف المتوقعة، أو تعديل الأحوال: فقد ذكر الحموي قريبا من هذا: "قول القبعثريّ للحجاج لما توعده فقال: لأحملنّك على الأدهم والمراد به القيد، فرأى القبعثريّ أن الأدهم يصلح للقيد والفرس، فحمل كلامه إلى الفرس، وقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فصرف الوعيد بالهوان إلى الوعد بالإحسان"[29]

وقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين، قوله: "ورأيت ناسا يستحسنون جواب إياس بن معاوية حين قيل له: ما فيك عيب غير أنك معجب بقولك.

قال: فأعجبكم قولي؟ قالوا: نعم .

فأنا أحقّ بأن أعجب بما أقول، وبما يكون مني منكم"[30]

لقد قُلبت المواقف المؤذية في هذه النصوص إلى مواقف حسنة، وهذا بفضل البديهة، وشاهد ذلك في أخبار جارية الناطفي يتضح فيما يلي:

نقل الأصفهاني هذا الخبر: "اجتمع أبو نواس وداود بن رزين الواسطي وحسين بن الضحاك وفضل الرقاشي وعمرو الوراق وحسين بن الخياط في منزل عنان جارية الناطفي، فتحدثوا وتناشدوا أشعار الماضين وأشعارهم في أنفسهم، حتى انتصف النهار، فقال بعضهم: عند من نحن اليوم؟ فقال كل واحد: عندي! قالت عنان: قولوا في هذا المعنى أبياتًا وتضمنوا إجازة حكمي عليكم، بعد ذلك.

فقالوا كلهم، ثم أنهت قائلة:

مهلاً فديتك مهلاً ... عنان أحرى وأولى
بأن تنالوا لديها ... أشهى الطعام وأحلى
فإن عندي حرامًا ... من الشراب وحلا
لا تطمعوا في سوى ذا ... من البرية كلا
كم أصدقوا: بحياتي ...أجاز حكمي أم لا؟
فقالوا جميعًا: قد جاز حكمك، فاحتبستهم ثلاثًا، يقصفون عندها[31].

كان يمكنها أن تطلب منهم -بإلحاح- أن يقصفوا عندها؛ ولكن ببداهتها جعلتهم يفيضون بقرائحهم، ثم أنهت قائلة شعرها، ما حملهم إلى النزول عند رغبتها في هذا الموقف، وجعلتهم هم من يقررون البقاء عندها، إذن لقد أدت البديهة إلى وظيفة غير تلك التي تفيض بها القرائح وتنسج الأشعار، وهو تحديد من يقوم بواجب الضيافة والإكرام، وهذا مثال جزئي والقائمة ثرية في هذا الجانب.

المبحث الثاني: عناصر البداهة في آثار الجارية عنان:

إن من بين أهم العناصر التي توحي بالبداهة في الردود: الفجائية، والسرعة، والدهشة، وذلك استنادا لما ذكره المصنفون في تفسير هذه اللفظة في معاجم اللغة واستنادا لما تعنيه الأخبار في سياقاتها المنقولة، فإذا ما توافرت هذه العناصر أو بعضها في النصوص والأخبار، فإننا حينها سنفترض بأن البداهة متوافرة فيها.

وعند الرجوع إلى معنى البداهة في المعاجم العربية والأدبية وما حكاه المصنفون من أوصاف هذه الجارية وأخبارها وأشعارها، نجد أن البداهة متحققة بنسبة كبير في النصوص التي قُيّدت، وهذه النصوص مجتمعه تُشكل ظاهرة يمكن للدارس أن يُراهن على توافرها، واكتساب النصوص لها.

فمن المعاني التي تتضمنها عبارة البداهة كما جاء في تعريفها في المصنفات العلمية والمتخصصة: (المباغتة والعفوية وسرعة الخاطر) فإن هذه العبارات وما يدور في فلكها قد انطبقت على بعض أخبارها، كما في خبرها مع أبي نواس، وخبرها مع أبان اللاحقي.

ومن الألفاظ المرادفة للفظة البداهة مما ورد في المعاجم العربية: انطلاق، استهلال، ابتداء، بداءة، مباشرة، إنشاء، مبادرة، تنفيذ، إصدار.

ولم أجد لعنصر البداهة في أخبار تلك الجارية أنواعا أو أصنافا واضحة لأجل أن أصنفها؛ ولكن البداهة تحتمل معاني كثيرة تشترك معها عناصرُ أُخر ثم تنضوي تحت هذا المسمى، كالسرعة مثلا، فهي تُعد إحدى المعاني المتعلقة بالبداهة، بل إنها من أهم العناصر التي تدل على البداهة في النص، ولذا فإن المصنفين أشاروا إلى ذلك في أكثر من موضع.

ومع هذا يمكن أن ننظر في تقسيم تقريبي -منطلقه المواقف والدوافع- في النصوص التي بين أيدينا، وليس في هذا التقسيم حدود فاصلة؛ فربما تتداخل بعض الشواهد في أكثر من قسيم؛ ولكن متطلبات البحث تستلزم سلوك هذا الأمر طمعا في التوضيح والتبيان.

فعناصر البديهة عند الجارية تتضح في النقاط الآتية:

1. عنصر السرعة
2. عنصر الإجابة
3. عنصر الارتجال
4. البداهة عند الطلب
5. عنصر الإيجاز والإطناب:
6. عنصر البداءة

ولا يبدو من نصوص الأخبار التي نُقلت أن البداهة متكلفة، ولم يُشر نقلة الأخبار إلى ذلك الأمر، ولم يلفتوا إليه؛ ولكن المتأمل والمتفحص يتبين له أن هذا العنصر يأتي مع المواقف بالسجية والطبع.

ففي أخبارها ما يدل على البداهة والسرعة والارتجال، وفي مواقفها وأشعارها ما يعكس هذا العنصر.

عنصر السرعة:

جدير بالذكر أن بعض المصنفين قد أشار إلى وجود السرعة في الرد وهذا من ضمن الإطار الذي يشكل بجملته البداهة، فمن سمات البداهة سرعة الإجابة والرد، فهي من أهم عناصر البداهة، وفي هذا الإطار قولهم في الخبر "فقالت غير متوقفة"[32]،"فقالت مسرعة"[33]، "فقالت بسرعة"[34]، "فقالت من وقتها"[35]، والكلام دون توقف داخل في دائرة السرعة؛ ولكن المصنفين أرادوا التعبير عن الحالة التي تتميز بها هذه الجارية بأكثر من تعبير، وأظن ذلك غير كاف فيما نُقل إلينا؛ لأن الوصف لا يمكنه أن يشف عن الواقع مهما تواترت العبارات.

والسرعة مرتبطة بالبداهة ولذا يقال دائما (رجل سريع البديهة)، وقد حكى الزمخشري ما يفيد ذلك، حيث قال في مادة (ب د ه)، بدهه أمر: فجئه، وهو ذو بديهة وأجاب على البديهة وله بدائع وبدائه، وهذا معلوم في بدائه العقول، وبادهني أمر كذا، وابتده الخطبة، وبنو فلان يتبادهون الخطب ولحقه في بداهة جريه[36].

وفي روايات أخر، فأطرقت ساعة[37] وليس المقصود بالساعة الزمن! بدليل أن ذات الخبر جاء في مصدر آخر؛ ولكن بعبارة أخرى، وهي: "فلم تلبث"[38]؛ ولكن يؤخذ من هذا الخبر أن الرد جاء في ذات المجلس.

إن مصطلح البداهة يشير إلى القدرة على إنشاء خبر بسرعة فائقة وفورية، بما يتوافق مع الوقت الحقيقي، وليس الأمر على رد جواب لسؤال

وحسب، وإنما صياغةٌ ونسقٌ مخصوص ينتج منه شعر يُتغنى به مدى الدهر كما هو أمامنا في هذا الخبر

إننا نلحظ في أخبارها ما ينم عن "سرعة الرد" بطرق متعددة كقولهم في الخبر: (فلم تلبث).

ومن أخبارها أيضا: (فما لبثت) أن قالت:

ويبكي فأبكى رحمةً لبكائهِ ... إذا ما بَكى دَمعاً بكَيْتُ له دَمَا[39]

وفي الأغاني: (فما لبثت) أن قالت: زوجوا هذا بإلف وأظن الإلف قوتا[40]

قال الأصفهاني: "أخبرني عمر بن عبد العزيز، قال حدثنا عمر بن شبة، قال حدثني: أحمد بن معاوية قال سمعت مروان بن أبي حفصة يقول: لقيني الناطفي، فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي، فقال لها: قد جئتك بأشعر الناس: مروان بن أبي حفصة، وكانت عليلة، فقالت: إني عن مروان لفي شغل!، فأهوى لها بسوطه، فضربها به، وقال لي: ادخل! فدخلت وهي تبكي، فرأيت الدموع تتحدر من عينيها، فقلت:

بكت عنان فجرى دمعها ... كالدر إذ يسبق من خيطه

فقالت مسرعة:

فليت من يضربها ظالماً ... تيبس يمناه على سوطه

فقلت للناطفي: أعتق مروان ما يملك إن كان في الجن والأنس أشعر منها!"[41].

ويلحظ المتأمل لأول وهلة أن عنصر البداهة مُستهدف ومقصود لذاته من قبل وليها، ولكن الجارية ذاتها لم تتعمد ذلك الهدف، ففي سياق هذا الخبر ثلاثة دوافع لموقف (مروان) يقابلها ثلاثة عوائق لموقف (عنان) تنتهي بنتيجة واحدة.

الدوافع:

أولها: الدعوة: (فدعاني) حيث دعا الناطفي (مروان بن أبي حفصة) إلى الذهاب إلى عِنان لعلمه بمآلات الأمور وما سيحدث من مواقف تخدم هذا الهدف.

ثانيهما: دخوله عليها قبله (فدخل إليها قبلي) وذلك تمهيدا لحثها وشحذِ قوةٍ لهذا الموقف.

ثالثهما: قوله لها: (قد جئتك بأشعر الناس) وفيه كناية عن القوة، وكأنه يثيرها بهذه المقولة.

العوائق:

أولها: ضربه لها بالسوط.

ثانيهما: معاناتها من المرض فهي تقول: (إني عن مروان لفي شغل).

ثالثهما: بكاؤها أمام مروان (فرأيت الدموع تتحدر من عينيها) والبكاء أمام الآخرين من أشد عوائق التحدث والتعبير.

النتيجة:

أجازت إجازة جيدة، مع ما تعانيه من ثلاث علل، فقال عنها مروان: (أعتق مروان ما يملك إن كان في الجن والأنس أشعر منها).

لقد تصرفت هذه المواقف بسردية الخبر تصرفًا واضحًا، من حيث الموضوع ومن حيث اختيار العبارات والألفاظ والحوار إلى غير ذلك.

إن مولاها لم يراع حالها، فاستغلت ببداهتها فرصة الموقف وحاولت مراعاة حالها بالدعاء على من ضربها وقد قلبت موقف الناطفي وما جاء به، وأشارت إلى أن هذا الضرب ظلم، ولم تكتف بذلك، بل ربطت ذلك بمن يُنصف المظلومين استعانةً بهِ على قوي الدنيا، فدعاؤها استعانة بالله القوي على أن ينصفها من هذا القوي عليها، وهذا مبلغ النباهة والبداهة في الرد، وحيث إن ردها: (تيبس يمناه على سوطه) قاس على مولاها، إلا أن حالة الموقف خففت من شنيع ردها ودعائها.

وإذا قلنا إن السرعة من العناصر المرتبطة بالبداهة فإن هذا يُصدِّقه ففي مصنفات العلماء يوردون عبارة سريع البديهة، وذلك عند ذكر حضور الذهن وما يتعلق بذلك مع سرعة الرد.

واستنادا على ما سبق ذكره، فإن عنصر المبادرة والسرعة ظاهر في مجمل أخبار تلك الجارية، ولذا تكررت عبارات تدل على ذلك من مثل: (فقالت غير متوقفة- فقالت مسرعة- فقالت بسرعة- فلم تلبث أن قالت- سرعة جواب)[42].

عنصر الإجابة

من سمات بداهتها: الإجابة، أي أنها تجيب الشاعر على شعره، وهذا مبلغ القوة في البداهة؛ لأنها ترد على إنشاء شاعر، ولا تنشئ ابتداء؛ والإنشاء ابتداء أسهل من الرد على إنشاء سابق يتطلب المجاراة[43]في المعنى والفكرة وربما الأوزان والتقفية وغير ذلك من قيود الشعر. ودلائل ذلك وفيرة، منها ما حكاه الأصفهاني في الأغاني، حين قال في خبرها مع أبي نواس: "ودخل إليها يوما فقال:

ماذا ترين لصب ... يريد منك قُطيرة

فأجابته:

إياي تعني بهذا ...عليك فاجلد(...)

ومنها ما حكاه التوحيدي، حيث يقول: دخل أبو نواس على عنان جارية النّاطفيّ فقال لها:

لو رأى في البيت جحرا ... لنزا حتى يموتا

أو رأى في البيت ثقبا ... لتحوّل عنكبوتا

فأجابته:

زوّجوا هذا بألف ... وأظنّ الألف قوتا

قبل أن ينقلب الدّا ... ء فلا يأتي ويوتى[44]

ومما يفيده هذا الخبر أن هذه "الإجابة" وقعت في ذات المجلس وربما في ذات اللحظة[45]، وتدل الأخبار أنها دائما ما تكون في موقف النقض والرد؛ ولذا ورد عند الرواة قولهم "فردت عليه"[46] وقد جاء في بعض الأخبار "فانقطع الرجل" وهذه نتيجة من نتائج تلك الردود المسكتة والسرعة المفحمة.

قال الأصفهاني: أخبرني عمي الحسن بن محمد، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزي، قال حدثني: أحمد بن القاسم العجلي قال حدثني أبو جعفر النخعي قال: كان العباس بن الأحنف يميل إلى عنان جارية الناطفي، فجاءني يوماً، فقال لي: امض بنا إلى عنان، فصرنا إليها، فرأيتها كالمهاجرة له، فجلسنا قليلاً، ثم ابتدأ عباس فقال:

قال عباس وقد أج ... هد من وجد شديد

ليس لي صبر على الهج ... ر ولا لذع الصدود

لا ولا يصبر للهج ... ر فؤاد من حديد

فقالت:

من تراه كان أغنى ... منك عن هذا الصدود

بعد وصل لك مني ... فيه إرغام الحسود!

فاتخذ للهجر إن شئت فؤاداً من حديد

ما رأيناك على ما ... كنت تجني بجليد

فقال العباس:

أو تجودين لصب ... راح ذا هم شديد

وأخي جهل بما قد ... كان يجني بالصدود

ليس من أحدث هجراً ... لصديق بسديد

ليس منه الموت إن لم ... تصليه ببعيد

فقلت للعباس: وعلى م هذا الأمر؟ قال: أنا جنيت على نفسي بتتايهى عليها، فلم أبرح حتى ترضيتها له[47].

بدراستنا لحالة عنان في هذا النص من الناحية الوجدانية والعاطفية فإن الخبر يروي أنها غير مستعدة للنزال في الشعر أو غير حاضر لها، نظرا لمقتضى حالها، فالخبر يذكر أنها: "كالمهاجرة للعباس" إشارة من القائل أن الجارية تمر بحالة ضعف وأنها غير مستعدة؛ لأنه قد أظلم ما بينهما، ومع كل هذا أجابته على شعره، وفي سياق الخبر "جلسنا قليلا" ينبئ أن الوقت الذي

أمضياه قليل، لذا فإن عامل العجلة والسرعة ظاهر في أطراف هذا الخبر وهذا مما يساند عنصر الموضوع الأساسي وهو البداهة وحين انتهى العباس من إنشادها، ردت عليه قائلة: من تراه...الخ ولم يذكر الخبر أنها تأخرت أو أجّلت ردها إلى حين، نظرا لحالها، وهذا مما يدعم عنصر البداهة في أخبار تلك الجارية وتوافر عنصرين اثنين، هما: الإجابة والسرعة.

عنصر الارتجال

في الباب السادس والثمانين من كتاب الزهرة وعنوانه: (ذكر من ارتجل شعرًا لم يقدم له قبل ذلك فكرًا) ذكر أبو بكر بن داود الأصبهاني موقف عنان حين سمعت أحد الشعراء يقول:

بكت عنان فجرى دمعُها. كلؤلؤ ينسل من خيطه

فقالت من وقتها:

كذاك من يضربها ظالماً تجفُّ يُمناه علَى سَوْطه[48]

والشاهدان قوله: (من ارتجل ولم يقدم فكرا) وقوله: (فقالت من وقتها).

إن اختيار المصنف لعنوان هذا الباب وذكره عبارة الارتجال وقوله: لم يقدم له قبل ذلك فكرا، إنما يدل دلالة واضحة على أن ما انطوت عليه هذه الأبيات هو من الارتجال الذي لم يقدم له فكر، وهذا أساس في البداهة التي نحن بصددها كما سبق التنويه إليه، إذ إنها كيف تقول من وقتها تركيبا شعريا دون أن تمتلك الارتجال والبداهة.

إننا عندما نستلهم ما نقله ابن سيدة عن ابن دريد وأبي عبيد: تحت عنوان (الْكَلام بالشَّيْء لم تهيئه والإصابة): "المبادهة والبداهة والبديهة، أَن يُفجأك أمْرٌ وتنشئ كلاماً لم تستعد لَهُ بدهه يبدهه بدهًا أَبُو عبيد، ارتجلت الْكَلام واقتضبته، ومعناهما تكلم فِيهِ من غير أَن يكون هيأه قبل ذَلِك وَكَذَلِكَ افتلت الْكَلام واقترحه"، فإننا نلحظ تجاذبا جميلا مع الخبر المنصوص عليه في بداهتها حين كانت غير مهيأة لقول الشعر مع رجل جهد جهده في إجازة بيت، حيث نقل الأصفهاني قائلا:

أخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال حدثنا عمر بن شبة عن أحمد بن معاوية، قال :قال لي رجل، تصفحت كتبًا فوجدت فيها بيتًا جهدت جهدي أن أجد من يجيزه، فلم أجده، فقال لي، صديق لي: عليك بعنان جارية الناطفي، فأتيتها فأنشدتها:

وما زال يشكو الحب حتى حسبته ... تنفس من أحشائه أو تكلما

فلم تلبث أن قالت:

ويبكي فابكي رحمة لبكائه ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

إلى أن رثى لي من كان موجعاً ... وأعرض خلو القلب عني تبرما[49]

ونلحظ أن الجارية قد استلهمت الفكرة التي في الأبيات فقامت بإكمالها،

فمن حيث انتهى صاحبها أكملت إنشاءه بإنشائها، فالحب يبدأ باللذة -غالبا- وربما ينحرف إلى الأوجاع والعذاب والخوف من الفراق وكثيرا ما يتخلله البكاء، فكان يُتوقع من هذا الحب أن يصل إلى مرحلة البكاء والألم، فقالت: ويبكي... وهذا مما يتوافق مع أفق التوقع لدى القارئ وهو تصرف مقبول ودليل على الفطنة والسليقة السليمة لدى هذه الجارية.

وبصرف النظر عن تعديلها في مفهوم الفكرة حين نقلت مسار الشعر من فكرة الحب إلى فكرة جديدة وهي البكاء؛ إلا أن قول ابن سيدة انطبق تمام الانطباق في هذا الخبر، والدليل أن الرجل اكتفى بجوابها؛ لأنها أصابت المقصود بيد أنها لم تتهيأ.

ونقل الأصفهاني: أن الناطفي قال يوما لأبي حنش: "لو جئت إلى عنان فطارحتها، فعزمت على الغدو إليها، وبت ليلتي أجول ببيتين، ثم غدوت عليها، فقلت: أجيزي هذين البيتين! وأنشد يقول:

أحب الملاح البيض قلبي وإنما ... أحب الملاح الصفر من ولد الحبش

بكيت على صفراء منهن مرة ... بكاء أصاب العين مني بالعمش

فقالت:

بكيت عليها؟ إن قلبي أحبها ... وإن فؤادي كالجناحين ذو رعش

تعنتنا بالشعر لما أتيتنا ... فدونك خذه محكماً يا أبا حنش"(50)

في الخبر أن أبا حنش قد تحفز لها واستعد لها أكثر مما استعدت له "بت ليلتي أجول ببيتين"، وعندما غدا إليها وطارحها فقالت: بكيت عليها...الخ، لم يذكر الخبر أنها تخلفت أو جالت كما جال أبو حنش...

البداهة عند الطلب

عندما يطلب الناطفي مولى الجارية منها أن ترد على أحد الشعراء أو تناقضه، فهل ستنجح في ذلك؟ الأخبار تدلنا على وجود الطلب والنجاح في الرد.

فإذا تأملنا عبارة "عابيه"، فهذا طلب وهو يدل على أنها مطلوبة للمعاياة والرد.

قال الأصفهاني: وقرأت في كتاب لجعفر بن قدامة: بلغني أن عنان جارية الناطفي، دخل عليها بعض الشعراء، فقال لها الناطفي: عابيه! فقالت:

سقيًا لقا طول لا أرى بلداً ... يسكنه الساكنون يشبهها

فقال:

كأنها فضة مموهة ... أخلص تمويهها مموهها

فقالت:

أمن وخفض وما كبهجتها ... أرغد أرض عيشًا وأرفهها

فانقطع الرجل[51].

ويتميز هذا النوع من الأخبار عن غيره بأن الجارية هي من تبدأ القصيد نظرا لوجود الأمر بالبدء، ثم تنتظر الرد. ولكن هذا الأمر قليل مقارنة بغيره.

ويسند ذلك أخبار أخر تسير في ذات المسلك من مثل قوله: "أومأ الناطفي إلى أبي نواس أن يحركها بشيء..."[52] وهذه فكرة لاستحثاث عنان للشعر ودليل مع أدلة كثيرة تدعم أنهم يرغبون تحريكها واستثارتها.

وهذا الخبر يسوقنا إلى التوقف عند عنصر متفرع منه، وهو: الانتصار: وهو أمر متعلق بالنهايات أو بالنتائج، فإن ما يتوافر في النص من هذا العنصر قوة وضعفا له نتائجه التي تظهر في نهاية الخبر المنصوص عليه.

ولقد ورد في النصوص والأخبار ما يفيد بذلك، كقول الأصفهاني: "فانقطع الرجل"[53] أي ما معناه أنها تغلبت عليه ولم يستطع الرد.

فقوله فانقطع الرجل بهذا تكون نتيجة البداهة إيجابية من ناحية الجارية.

وقوله أيضا حكاية عن الشعراء: "قد جاز حكمك"[54] حين اجتمع الشعراء عندها وتناشدوا الشعر فأنشدتهم فقالوا لها تلك العبارة.

عنصر الإيجاز والإطناب:

الإيجاز عنصر متوافر مع البديهة ومتلازم معه، فالردود والإجابات تلتف بالإيجاز وقد لفت إلى ذلك بعض المتأخرين من أهل اللغة، يقول أحدهم: "كانت العرب توجز تارة وتسهب تارة، ولكل من النوعين مكان يليق به وموضع يحسن فيه. فالاقتضاب يكون عند البداهة. والإطناب يكون يوم الغزارة"[55].

فعند تأمل الشواهد نجد أن في أخبار هذه الجارية ما يدعم ذلك، ففي خبرها مع الرشيد حين سألها "أتحبين أن أشتريك، قالت: ولم لا أحب ذلك يا أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً".

عند هذا الحد توقفت في الإجابة عن سؤال الرشيد؛ ولكنها أوجزت، ودليل ذلك أنه طلب منها الإطناب والإسهاب فيما قالت، فقال لها: "أما الخَلق فظاهر، فما علمك بالخُلق؟ فأطنبت بعد ذلك بذكر قصة المجمر...

عنصر البداءة

وهو أقرب لعنصر الحضور والبداهة عند الطلب، قال الزمخشري: "بدهني بكذا بدأني به"[56] ويتوافر شواهد من هذا العنصر في أخبار عنان، من ذلك ما حكاه الأصفهاني حين قال: "أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان، قال حدثني أحمد بن المعلى الراوية، قال: كتبتْ عنان جارية الناطفي إلى جعفر بن يحيى البرمكي تسأله أن يسأل أباه، أن يكلم الرشيد في أن يشتريها - أو يشير عليه بذلك - فقالت:

يا لائمي جهلاً ألا تقصر ... من ذا على حر الهوى يصبر

لا تلحني أني شربت الهوى ... صرفًا، فممزوج الهوى يسكر
وكتبت تحت الأبيات تسأله حاجتها.

يتوافر عنصر البداءة في هذا النص، حيث إنها بدأت بطلب حاجتها وجعلت بينها وبين مطلوبها الوساطات، وهذا قليل في أخبارها المنقولة، إنه قمين أن تُجاب حاجتها؛ ولكن للأسف لم يقبل مسألتها ولم يُلب حاجتها.

الخاتمة

حاولت الدراسة تسليط الضوء على عناصر متعددة من بداهة الجارية عنان، كما حاولت بيان بعض الخصوصية التي تتميز بها، وتصنيفها إلى مجموعة أصناف والوقوف على مواطن البداهة ومنابعها في النص وشرح ذلك بالشواهد والأدلة.

وقد تصدت الدراسة إلى كثير من عناصر البداهة ومقوماتها المتوافرة في الأخبار المروية لتلك الجارية لبيان قيمة هذا العنصر وأهميته. كما أجابت الدراسة عن أسئلة البحث، ومن أهمها، مفهوم البداهة عند هذه الجارية وقيمتها وطرق إنشائها. وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة ومبحثين، فالمبحث الأول: تناول البداهة في أخبار جارية الناطفي والثاني تناول نماذج وشواهد للبداهة وعناصرها.

وخرجت الدراسة في مجموعة من القيم والنتائج من أهمها:

1. أثنى الأدباء على شعر هذه الجارية وأدخلوه في باب المعارضات، ولذا لفت الكُتاب إلى هذه السمة التي تتميز بها وما يرادفها فقالوا: لها أخبار و(معارضات – مساجلات- معاتبات- مضاحكات- مطارحات).
2. البديهة واضحة بشكل ملموس في شعرها أكثر من أخبارها النثرية، لتوافر العناصر التي تساعد على وجودها من مثل المعاياة والمجاراة، وإلى جانب آخر فإن شعر هذه الجارية أكثر من نثرها، وهذا بطبيعة الحال سينعكس على نسبة البداهة قلة وكثرة.
3. إن جل الصفات التي وُصفت بها هذه الجارية وتواترت عند الكُتاب وتكررت في مصنفات الأدباء والعلماء -خلا أوصافها الشكلية أو قوامها وهيئتها مما لا يتعلق بموضوع الدراسة- هي تلامس موضوع البحث وتتفرع منه، بل إن غالب الأوصاف يمكن أن تَحمل معنى البداهة بشكل أو بآخر.
4. البداهة في أخبار تلك الجارية تضفي على النص قيما ملموسة، ومن أهمها: موافقتها أو مخالفتها لتوقع القارئ، وفي كلا الحالتين ينتج عن ذلك استثارة

وتحفيز.

5. لم أجد لعنصر البداهة في أخبار تلك الجارية أنواعا أو أصنافا واضحة لأجل أن أصنفها؛ ولكن البداهة تحتمل معاني كثيرة تشترك معها عناصرُ أُخر ثم تنضوي تحت هذا المسمى، كالسرعة والارتجال.
6. لا يبدو من نصوص الأخبار التي نُقلت، أن البداهة متكلفة، ولم يُشر نقلة الأخبار إلى ذلك الأمر، ولم يلفتوا إليه؛ ولكن المتأمل والمتفحص يتبين له أن هذا العنصر يأتي مع المواقف بالسجية والطبع.
7. استنادا على ما سبق ذكره، فإن عنصر المبادرة والسرعة ظاهر في مجمل أخبار تلك الجارية، ولذا تكررت عبارات تدل على ذلك من مثل: (فقالت غير متوقفة- فقالت مسرعة- فقالت بسرعة- فلم تلبث أن قالت- سرعة جواب).
8. مما تفيده أخبار تلك الجارية أن "الإجابة" تقع في ذات المجلس وربما في ذات اللحظة، وتدل الأخبار أنها دائما ما تكون في موقف النقض والرد؛ ولذا ورد عند الرواة قولهم: (فردت عليه).
9. يتوافر عنصر البداءة في أخبار الجارية، وهو قليل إذا قارناه بالعناصر الأخرى.
10. مما يُلحظ أن هذه البداهة عنصر مستهدف ومستجلب من أبطال الأخبار لبيان براعة هذه الجارية وحسن ردها وليس من الجارية نفسها.

التوصية:

لا تزال أخبار تلك الجارية ولادة للمعاني والفِكر، بما تحمله من مكتسبات أدبية كثيرة، ولذا تكشفت عناصر عديدة عند تناول هذه الدراسة، من أهمها: أفق الانتظار وهو مبدأ مهم في باب التلقي، وعنصر النقض على نحو دراسة النقاد للنقض عند ثلة من الشعراء، وباب الانتظار مهيأ للدراسة والتحليل أكثر من غيره في أخبار تلك الجارية.

الهوامش:

(1) الفارابي، ديوان الأدب، مادة (بده)
(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بده)
(3) عمر، أحمد مختار، وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (بده)
(4) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ج١، ص: ٤٨٤، وانظر: المقري، شهاب الدين أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ج٥، ص: ٧٩، وانظر: الحازمي، خالد بن حامد، الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، عدد، ١٢١، سنة ٣٥، ١٤٢٤هـ، ص:٤٧٢

(5) الأصفهاني، أبو الفرج، الإماء الشواعر، تحقيق: د. جليل العطية، دار النضال للطباعة 1984م – 1404هـ، ص:٤٤
(6) الفارابي، مادة (بده)
(7) القالي، أبو علي إسماعيل بن قاسم، الأمالي، تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٢٦م، ج١، ص: ١٨٨
(8) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص: 27
(9) انظر: الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:24
(10) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص: ٢٨
(11) ابن ماكولا، سعد الملك أبو نصر، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ج٦، ص:٢٨٢
(12) ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود، الورقة، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م، ص:٤٢ وهذا من أقدم المراجع التي تناولت أخبار هذه الجارية؛ ولكن الأخبار التي جاءت فيه مقتضبة جدا.
(13) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، شرح: عبد الأمير علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، ج٢٣، ص:٩٢
(14) الإربلي، أبو المجد أسعد بن إبراهيم، المذاكرة في ألقاب الشعراء، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ٢٠١٢م، ص:٥٩
(15) البيروتي، بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، لبنان، ١٩٣٤م، ص: ٢٤١
(16) الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ج٥، ص:٩٠.
ومن قول الزركلي:" قال أبو علي القالي: عنان الشاعرة اليمامية، كانت بارعة الأدب، سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف منهم" هذا النص ورد في كتاب سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ج١، ص: ٥٠٠
وأغلب الظن أن قائل هذا النص هو: البكري أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى ٤٨٧هـ صاحب كتاب سمط اللآلي في شرح أمالي القالي.
(17) من أبرزها كتابا (المحاسن والأضداد) و(الحيوان) للجاحظ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، ولها أخبار متفرقة في كتاب الأغاني وكتاب طبقات ابن المعتز وكتاب الورقة وكتاب الفهرست وكتاب أخبار أبي نواس وغيرها.
ولم يكن بد من الإشارة -بالنص- إلى ما ذكره الأوائل عن هذه الجارية، نظرا للعلاقة الوثيقة ما بين فكرة العنوان وما ساقه هؤلاء، حيث سينبني على هذه النصوص استخراج عناصر متعلقة بأصل هذه الدراسة؛ ولذلك آثرت نقل أوصافها من بطون الكتب بناء على الترتيب التاريخي ليتبين أهمية الموضوع.
(18) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص: ٢٧

(19) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٢٨-٢٩-٤٠-٤٥-٤٦-٤٨، وأظن أن هذا الاسم جاء من بيت شعر قاله أبو نواس: (إن عنان النطاف جارية...) وأظنه وقع اللبس في هذه التسمية من أجل هذا؛ لأن جميع المصنفات تسميه (الناطفي) وليس النطافي.
(20) نظرا لأنها لا تتعلق بأصل الدراسة، فلن أتطرق لتحرير الاسم؛ ولكنني اعتمدت مسمى (الناطفي) نظرا لوروده في أول كتاب الإماء الشواعر، وهو الكتاب الذي نقلت منه أخبار هذه الجارية وأشعارها.
(21) ابن النديم، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ص: ١٩٩ والأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٢٧
(22) انظر: الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٤٦
(23) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ج١، ص: ٥١
(24) الجوهري، أبو نصر، الصحاح، مادة بده
(25) الأصفهاني، أبو الفرج، ملحق الأغاني (أخبار أبي نواس)، تحقيق: علي مهنا، سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج١، ص: ٢٨
(26) الزركلي، ص:٩٠
(27) دوزي، رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي وجمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠م، مادة بده
(28) ابن الجراح، الورقة، ص:١٠، الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص: ٣٠
(29) الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، 2004م، ص: 258-259
(30) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ، ص: ٧٨
(31) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٣٩، يقصفون: الإقامة والأكل والشرب مع اللهو، انظر: الزبيدي، محمد الحسيني، تاج العروس، مادة: (ق ص ف).
(32) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٣١
(33) الأزدي، أبو الحسن علي بن ظافر، بدائع البدائه، مصر، ١٨٦١م، ص:٤٨
(34) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، الأوراق، شركة أمل، القاهرة، مصر،١٤٢٥هـ، ج١، ص:٢٣
(35) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود البغدادي الظاهري، الزهرة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ص:٧٧٦
(36) الزمخشري، أساس البلاغة، ج١، ص: ٥١
(37) ابن عبد ربه الأندلسي، شهاب الدين أحمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ، ج٧، ص:٦٤
(38) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٣٠
(39) ابن الجراح، الورقة، ص:١٠
(40) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص: ٩١
(41) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص: ٢٩

(42) الإربلي، المذاكرة، ص:٥٩
(43) وهذه المجاراة أو المساجلة أو ما تسمى بالإجابة ويدخل معها المعاياة بين الشعراء، استمرت على مدى الزمن، وهي موجودة إلى الآن، وتسمى بشعر الرّديّة أو المحاورة في عهدنا الحاضر؛ وهي لم تتطور؛ ولكنها انحرفت فأصبحت تُؤدى بغير الفصحى غالبا.
(44) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ج١، ص:١٩٧
(45) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص: ٩٢
(46) المرجع السابق، ص: ٩٥
(47) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٣١
(48) الأصبهاني، الزهرة، ص: ٧٧٦
(49) نص سبق تحليله؛ ولكن من وجهة أخرى.
(50) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٢٩
(51) المصدر السابق، ص:٣٤
(52) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج١٨، ص:١٨
(53) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٣٤
(54) الأصفهاني، الإماء الشواعر، ص:٤٠، وانظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة هلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ، ص: ١٨٠، والرواية عنده: "قد أجزنا حكمك".
(55) السراج، محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٩٨٣م، ص: ١٦٦
(56) الزمخشري، أساس البلاغة، ج١، ص: ٥١

المصادر والمراجع

1. ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود، الورقة، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م.
2. ابن النديم، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.
3. ابن عبد ربه الأندلسي، شهاب الدين أحمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.
4. ابن ماكولا، سعد الملك أبو نصر، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.
5. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.
6. الإربلي، أبو المجد أسعد بن إبراهيم، المذاكرة في ألقاب الشعراء، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ٢٠١٢م.
7. الأزدي، أبو الحسن علي بن ظافر، بدائع البدائه، مصر، ١٨٦١م.
8. الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود البغدادي الظاهري، الزهرة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
9. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، شرح: عبد الأمير علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
10. الأصفهاني، أبو الفرج، الإماء الشواعر، تحقيق: د. جليل العطية، دار النضال للطباعة 1984م – 1404هـ.
11. الأصفهاني، أبو الفرج، ملحق الأغاني (أخبار أبي نواس)، تحقيق: علي مهنا، سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
12. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط٤، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
13. البيروتي، بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة

الأهلية، بيروت، لبنان، ١٩٣٤م.
14. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.
15. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.
16. الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة هلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.
17. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
18. الحازمي، خالد بن حامد، الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، عدد ١٢١، سنة ٣٥، ١٤٢٤هـ.
19. الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، 2004م.
20. دوزي، رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي وجمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠م.

21. الزَّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،١٩٦٥م.
22. الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.
23. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.
24. السراج، محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٩٨٣م.
25. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
26. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، الأوراق، شركة أمل، القاهرة، مصر،١٤٢٥هـ.

27. عمر، أحمد مختار، وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.
28. الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين، معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
29. القالي، أبو علي إسماعيل بن قاسم، الأمالي، تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٢٦م.
30. المقري، شهاب الدين أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.